العلامة اللغويّة بين التراث اللغوي العربي واللسانيات المعاصرة

أ. م. د. حامد كاظم عباس

جامعة بغداد / كلية اللغات / وحدة سلامة اللغة العربية
Email: hamid.k@colang.uobaghdad.edu.iq

ورقة بحثية : محور (اللغة العربية وأثرها في العلوم اللغوية)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

العلامة اللغوية بين التراث اللغوي العربي واللسانيات المعاصرة

أ. م. د. حامد كاظم عباس

معلوم أنَّ اللسانيات المعاصرة على الرغم من أنّها من انجازات التقدم العلمي في العصر الحديث إلا أنّها لم تكن بدعاً ليس له سابق، وليس خافياً على الباحثين أنَّ هناك آراء وأفكار تدخل في صميم البحث اللساني المعاصر جاءت في مؤلفات الأصوليين والمتكلمين والمفسرين اللغويين القدامى سبقوا بها رواد اللسانيات المعاصرة. وكان البحث في مسألة العلامة اللغوية محل اهتمام مفكري الامم منذ أقدم العصور ... أما الفكر الالسني الحديث فقد حدد أربعة معالم رئيسة لدراسة العلامة اللغوية، وهي: حد العلامة اللغوية، والصفة الخطية، والاعتباطية في العلامة اللغوية، والعلامة اللغوية وعلاقاتها بأنظمة التواصل الأُخرى.

أولاً: مفهوم العلامة اللغوية:

إنَّ مفهوم العلامة اللغوية عند (سوسير) يتجلى في الكلمة الواحدة التي اصطلح على تسميتها بالوحدة اللغوية (حيث الوحدة كل مقطوعة صوتية بقطع النظر عن كل ما قبلها وعن كل ما بعدها من السلسلة الملفوظة دالٌ خاص لمتصور من المتصورات الذهنية) . والجدير بالذكر أنَّ (سوسير) وغيره من اللسانيين المحدثين استعملوا مصطلح (العلامة) بدلاً من مصطلح (الرمز) لاختلاف ماهية كل منهما من حيث علاقته بما يُشير أو يرمز إليه، على الرغم من التشابه بينهما في أنَّ كل منهما يحمل دلالات أو معلومات تصل ألينا، إلا أنَّ العلاقة بين العلامة وما تشير اليه علاقة اعتباطية، أما العلاقة بين الرمز وما يرمز اليه فعلاقة سببية منطقية حيث يدل الرمز بذاته على ما يدل عليه.

ومقولة (سويسر) هذه في شأن العلامة اللغوية ليست بعيدة عن مقولة الفارابي (ت 339ه) في تعريفه لألفاظ اللغة بقوله: (وأما الالفاظ فإنها علامات مشتركة إذَا سُمعت خطر ببال الانسان الشيء الذي جعل اللفظ علامة له، وليس أكثر، وذلك شبيه لسائر العلامات التي يجعلها الانسان لتذكره ما يحتاج إلى ان يذكره)، والى هذا المعنى ذهب عبد القاهر الجرجاني (ت 471ه) فاللغة عنده (تجري مجرى العلامات والسمات ولا معنى للعلامة والسمة حتى يحتمل الشيء ما جُعلت العلامة دليلاً عليه). فالعلماء العرب القدامى كانت لهم عناية كبيرة بالعلامة اللغوية دون سائر العلامات وذلك لأهميتها في التواصل وهي عندهم الوسيلة التواصلية الاولى.

ثانياً: الاعتباطية في العلامة اللغوية :

ذهب الدرس اللساني المعاصر إلى ان العلاقة بين العلامة اللغوية وما تشير اليه علاقة اعتباطية – أي أنها علاقة غير معللة – بمعنى أنّها علاقة قائمة على المواضعة والاتفاق بين افراد المجموعة اللغوية، وعليه لا دخل لطبيعة الرموز اللغوية بمعانيها؛ ذلك أن هذه الرموز لا صلة بينها وبين مدلولها بشكل مادي أو لازم طبيعي وإنما تقوم على أساس العرف اللغوي الاجتماعي. وقد اصبح مفهوم الاعتباطية أحد الركائز الرئيسة في الفكر اللساني المعاصر، فليس في الدال ما ينبئ عن المدلول.

وإذا كانت الاعتباطية أحد الركائز الرئيسة في الفكر اللساني المعاصر فإنَّ اللغويين العرب القدماء أدركوا هذه المسألة وأصبح هذا الاتجاه اكثر الاتجاهات قبولاً في التراث اللغوي العربي، وفي هذا الاتجاه نجد أنَّ القاضي عبد الجبار المعتزلي (ت 415ه) يحلل علاقة الاسم بالمسمى على نحوٍ دقيق يؤكد فيها اعتباطية العلاقة بين الدال والمدلول، فهو يرى أنَّ حقيقة الحروف لا تتعلق بالمسمى لشيء يرجع إليه كتعلق العلم والقدرة بما يتعلقان به، فلا بد من أمرٍ آخر يوجب تعلقه بالمسمى وليس هناك ما يوجب ذلك سوى القصد والارادة. وقد أورد عبد القاهر الجرجاني عبارة دقيقة يؤكد فيها اعتباطية الالفاظ وقيمتها العرفية الاجتماعية عندما قال: (فلو أنَّ واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب) لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد)، فالجرجاني

يؤكد هنا أنَّ أشكال الكلمات ليست بدالة على شيء ولا ترتبط في هيئتها وأصواتها بمدلولاتها، وإنما يتم الربط بين هذه الاشكال اللغوية وما تدل عليه بالتفاهم الاجتماعي.

ثالثاً: علاقة العلامة اللغوية بأنظمة التواصل الأُخرى:

ذهب الدرس اللساني المعاصر إلى أفضلية العلامة اللغوية (أو اللغة) على أنظمة التواصل الأُخرى، وأنَّ اللغة لا بد أن تكون انموذجاً لكل الأنظمة العلامية الأُخرى؛ وذلك بسبب (أنَّ المعنى من نتاج اللغة فلا يمكن للعلامية إلا أن تلجأ إلى اللغة للوقوف على دلالة الاشياء)، وهذا الشيء أشار إليه اعلام الفكر العربي القديم، وذكروا مميزات الظاهرة اللغوية التي تمنحها الافضلية بصفتها نظاماً علامياً وذلك بمقارنتها بالأنظمة العلامية الأُخرى، وأهم هذه المميزات هي: خاصية التولد والانتشار والقدرة على استيعاب جميع المعاني والدلالات وتوليد الفاظ غير متناهية، وفي هذا يقول الرازي (ت 606ه) : (إنَّ الأصوات بحسب التقطيعات الكثيرة في مخارج الحروف تتولد منها الحروف الكثيرة وتلك الحروف الكثيرة بحسب تركيباتها الكثيرة يتولد منها كلمات تكاد أن تصير غير متناهية ... ومثل هذا لا يوجد في الإشارة والتصفيق).

رابعاً: الصفة الخطيّة للكلام:

الصفة الخطية من الناحية الاصطلاحية واحدة من انجازات الفكر اللساني المعاصر، ولكن الفكر العربي القديم أشار بكل وضوح إلى علاقة اللغة بالزمن وما يترتب على ذلك من خصوصية للكلام لا تتحقق في غيره من وسائل الاتصال، وعلينا – قبل كل شيء- أن نحدد مفهوم (الصفة الخطية) ، ويعد العالم اللغوي (سويسر) مبتدعه من الناحية الاصطلاحية، ومفهوم (الخطية) عند (سويسر) يعني أنَّ الدال اللغوي ذو طبيعة سمعية، إذ إنَّهُ يجري في الزمن وحده، ومن ثمَّ له خصائص الزمن في شيئين:

الأوَّل: أنه يمثل امتداداً

والثاني: أنه يمكن ان نقيس هذا الامتداد من بعد واحد وهو الخط.

وتقتصر هذه الخاصية (الصفة الخطية) على الدال وحده، أي الصورة السمعية، ويختلف الدال السمعي عن الدال البصري في أنَّ الدال البصري – مثل إشارات المرور- (يوفر امكانية قيام مجموعات على عدة أبعاد في آن واحد ، في حين أنَّ الدال السمعي له بُعد واحد فقط هو البعد الزمني، وعناصر الدال السمعي تظهر على التعاقب فهي تؤلف سلسلة)، وبمعنى آخر أنَّ الركيزة المادية للدليل اللغوي هو الصوت، ولذا فإنّهُ في أثناء عملية النطق يتسلسل الصوت مع الزمن في خط أفقي، وهذه الصفة – أي تسلسل الصوت – تجعل العلامة اللغوية قابلة للتحليل والتقسيم إلى أجزاء، وبطبيعة الحال فإنَّ كل جزء فيها يتبع جزءاً آخر في تتابع خطي وزمني منظم. وهذا المبدأ – الصفة الخطية – يبدو للوهلة الاولى انه بسيط، ولكن (سوسير) يرى أنه على الرغم من بساطته فإنهُ أساس وله نتائج لا تحصى.

إنَّ ظاهرة اندراج الكلام في صلب الزمن تتمثل في خصوصية الصوت الملازم للحدث الكلامي، والصوت لا ينفك عن الزمن تصوراً وانجازاً، ومن هذا المنطلق نجد أنَّ المفكرين العرب القدامى أكدوا أنَّ اندراج حدث الكلام في صلب الزمن يجعله مطبوعاً بسمة الخطية حتى أنها صارت الخاصية المميزة له دون سائر الأنظمة التواصلية الأُخرى، فلا الكتابة ولا الرسم ولا الاشارات أو الحركات تتميز بسمة الخطية، وقد أشار القاضي عبد الجبار المعتزلي إلى أنَّ من حق الكلام أن يترتب في الحدوث والا لم يكن مفيداً، وفي هذا يقول : (لأنَّ قول القائل (قام زيد) متى لم تحدث حروفه على هذا الوجه لم يكن بأن يكون (زيداً) بأولى من أن يكون (ديزا) أو (يزداً)، ولا بأن يكون (قام) بأولى من أن يكون (ماق)، ولذلك قلنا : إنَّ من حق الكلام أن يكون حروفاً منظومة ... وما وقع في حال واحدة لا يصح فيه). وهذا يعني أنّ القاضي عبد الجبار المعتزلي لم يكتفِ بتوكيد الصفة الخطية للكلام، بل حدد أسبابها، وهو يرى أن السبب في خطية الكلام هو شرط الإفادة، فالكلمات والعبارات لكي تكون واضحة ومفهومة يجب ان تتعاقب حروفها بالنطق، فخضوع الكلام إلى قيد الزمن (هو ضرورة مبدئية في وجوده نوعياً و وظيفياً).

والأكثر من ذلك أن القاضي عبد الجبار المعتزلي سبق (سوسير) في مسألة التفريق بين دلالة الكلام السمعية وأنظمة الدلالة الأُخرى التي لا تمتلك البعد الزمني، فـ (سوسير) يرى أن الدوال الاكوستيكية (السمعية) ليس لها ما تتصرف فيه عدا خط الزمن بخلاف الدوال المرئية (مثل: الكتابة، الرسم، الاشارة ...) والتي قد تمثل تشعبات متزامنة ذات أبعاد متعددة، وهذا ما سبق إليه القاضي عبد الجبار المعتزلي وذلك عندما قام بمقارنة الظاهرة اللسانية (أي الكلام)، بالأنظمة التواصلية الأُخرى، فالكتابة – مثلاً – وهي من أدوات الابلاغ العلامي لا تقتضي وجوباً سمة الخطية عند انجازها الحدث الكلامي، بينما لا يستقيم للكلام وجوده الصحيح الا بتعاقب اجزائه، وفي هذا يقول القاضي عبد الجبار : (إنَّ الكلام إنما يفيد بأن يحدث بعضه في أثر بعض ... وليس يلزم على ذلك الكتابة والرسم والنقش؛ لأنَّ كل ذلك لم يثبت أنه يفيد لحدوثه على ضرب الترتيب ... ؛ لأنَّ الفائدة من الكتابة تقع بأن يراها الواحد منا مكتوبة جملة واحدة).

ومن الذين أكدوا الصفة الخطية للكلام من القدماء الشريف المرتضى (ت 436ه) وهو معاصر للقاضي عبد الجبار، وقد أشار إلى خطية الكلام بقوله: (إنَّ الكلام إذَا وُجدت حروفه كلها معاً ولم يكن لبعضها على بعض تقدم في الوجوه لم يكن مفيداً). وفي هذا الاتجاه – أيضاً – عمل ابن جني اللغوي (ت 392ه) مقارنة بين ارتباط الكلام ببعد الزمان وارتباطه ببعد المكان، وانتهى إلى القول في امكان تواجد الأمكنة المختلفة وانصهارها مع تعذر تواجد الأزمنة أو توحدها، فيكون مبدأ الخطية الذي هو من خصائص الكلام مقترناً بمبدأ التعاقب، وفي هذا يقول : (وكأنه إنّما جاء على هذا النحو في الأزمنة دون الأمكنة من حيث كان كل جزء من الزمان لا يجتمع مع جزءً آخر منه، إنما يلي الثاني الأوَّل خلفاً له وعوضاً عنه ... وليس كذلك الأزمنة).